الأسطورة وإشكاليّة تصنيفها في الدّراسات الحديثة

مصطفى أوشاطر

جامعة تلمسان

الجزائـر

• تقديم

على الرغم من تباين آراء الباحثين والدارسين حول مفهوم الأسطورة وأنواعها إلا أنه وكما لا يخفى على أحد تظل من حيث كونها مادة فولكلورية رفدا أساسيا من روافد التراث الشعبي، فهي تحتل مكان الصدارة ضمن مواده، ولا سبيل إلى إغفالها أو تجاهلها عند دراسة تراث أي شعب من الشعوب.

ونظرا لما لها من أهمية باعتبارها كنزا من كنوز المعرفة الإنسانية التي لا تقدر بثمن، فلقد عدت مصدرا خصبا من مصادر دراسة نمط تفكير الشعوب ورؤيتها للكون ومعرفة مواقفها من القضايا الجوهرية التي عانت منها وشغلتها ردحا من الزمن كالموت والخلود والمقدس وغيرها... فإنني سأركز في هذا المقال على تعريف الأسطورة وإشكالية تصنيف أنواعها لا من حيث هي كلمة فحسب، وإنما أيضا من حيث هي مفهوم وذلك انطلاقا من العناصر الآتية : - أولا : الأصل الاشتقاقي لهذه الكلمة في اللغة العربية.

- ثانيا :البحث في معناها الاصطلاحي الذي أصبح متعارفا عليه لا عند العرب فحسب وإنما عند سائر الأمم والشعوب.

- ثالثا : إشكالية تصنيفها.

أولا• الأصل الاشتقاقي لكلمة "أسطورة" في اللّغة العربيّة

يقول ابن منظور في لسان العرب : إن الفعل الاشتقاقي لكلمة أسطورة هو "سطر" و هذا يعني أنها آتية من سطر، يقال : سطر فلان علينا يسطر إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل[1].

وفي سياق حديثه عن كلمة "أسطورة" أورد ابن منظور عددا من الآراء التي اهتمت بالأصل الاشتقاقي لهذه الكلمة منها هذا القول الذي نسبه للزجاج وهو أسبق منه الذي شرح قول اللّه تعالى : ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُالأَوَّلِين﴾ معناه سطره الأولون [2].

ومنها كذلك قول أبي عبيدة، عالم اللغة الشهير المتوفى سنة 210 هـ الذي رأى أن لفظة أساطير هي صيغة منتهى الجموع، فهي عنده جمع أسطر، وأسطر جمع سطر[3].

فالأسطورة من هذا المنظور مشتقة من سطر، واسم المفعول منها : مسطور، كما في قوله تعالى :﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أما جمعها: فهو أساطير كما ذكر ابن منظور على لسان الزجاج «وواحد الأساطير أسطورة كما قالوا أحدوثة وأحاديث».[4]

غير أن جهود بعض الباحثين المحدثين استبعدوا أن تكون كلمة أسطورة مأخوذة من "سطر" وربما استوحوا ذلك مما قاله ابن منظور على لسان أبي الحسن من أن لفظة أساطير الواردة في بعض آي الذكر الحكيم لا واحد

له، وسنذكر في هذا المجال محاولتين اثنتين تتفقان من حيث المضمون وتختلفان من حيث الطرح، الأولى لخليل أحمد خليل والثانية لوديع بشور.

أما الأول فيذهب إلى أن كلمة أسطورة هي من الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية وهذا رأيه : «يقال إنها عربت عن اليونانية قبل الإسلام، لذلك لا أصل لها في معجمنا العربي الاشتقاقي والدلالي، وتعريبها عن اليونانية قديم، وهي متعلقة بأمور الكواكب والتنجيم والفلك، ومثالها في زمن لاحق الإسطرلاب، الذي نرى به صورة الكون»[5].

وما يمكن أن نسجله على هذه المحاولة هو استنادها على ما ورد في كتاب :"غرائب اللغة العربية" للأب رفائيل نخلة اليسوعي «من كلمات دخيلة منها كلمة أسطورة التي صنفها ضمن الكلمات المقتبسة من اليونانية[6].

أما الثاني فيتفق مع خليل أحمد خليل في كون أن كلمة أسطورة من الكلمات الدخيلة في اللغة العربية ولكنها لم تعرب بلفظها وإنما بلفظ قريب منها، فقد ذهب إلى أن كلمة أسطورة هي قرينة الصلة بمثيلتها في اليونانية : «Historia» ولا يستبعد أنها مشتقة من هذا المصطلح حرفيا، يقول : «وكلمة "أسطورة" العربية مقتبسة من كلمة إسطوريا (Historia) اليونانية وتعني حكاية أو قصة»[7].

وما يؤخذ على هذه المحاولة هو الاعتماد على التشابه اللفظي القائم بين كلمة أسطورة العربية وبين إسطوريا اليونانية، وهذا التشابه اللفظي في نظرنا غير مؤسس أولا ولا يفي بالغرض ثانيا. فهذه المحاولة تنحصر في كونها لا تستند على أي تبرير موضوعي ولا تشير إلى أي سند من التراث يؤخذ مرجعا للدلالة على ما ذهب إليه وديع بشور.

ورغم اتفاق المحاولتين من حيث المضمون بأن كلمة أسطورة دخيلة على المعجم العربي، فستبقى مجرد اجتهاد شخصي وضرب من التخمين لانعدام الشاهد وغياب السند.

ثانياء المعنى الاصطلاحيّ لكلمة "أسطورة" في الدّراسات الحديثـة

تعود الأسطورة لغويا إلى العبارة القرآنية «أساطير الأولين» وتشير إلى القصص والأحاديث العجيبة التي لا أصل لها، فالأساطير = الأباطيل، والأساطير = أحاديث لا نظام لها[8].

إنّ هذا التفسير الذي انتهت إليه المعاجم اللغوية له بعد ديني في الأساس مثلما يقول محمد عجينة : «وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى في سور مكية وفي سياق جدل واحتجاج بين النبيّ [وكفار قريش، لأنهم اعتبروا تلك الأخبار من الأوهام والأباطيل»[9].

وإلى هذا المعنى انتهى عبد الملك مرتاض عندما قال : «والحقّ أن هذا هو المدلول الديني الذي وردت عليه في الآيات التي تكررت زهاء تسع مرات في القرآن الكريم حكاية عن كفار قريش حين رفضوا ما جاء به محمد [من رسالة سماويّة»[10].

أما المعنى الاصطلاحي الذي أفرزته وجهة نظر الدارسين الذين تخصصوا في دراسة الأساطير في العصر الحديث فهو على النقيض مما انتهت إليه المعاجم اللغوية. فهذا المعنى بالنسبة إليهم لا يعبر عن حقيقة الأسطورة وهو في نظرهم سطحي وبعيد عن الفهم العميق والدراسة العلمية وهذا ما سنتعرف عليه من خلال عرض المعنى الحديث لكلمة أسطورة.

يتساءل إرنست كاسيرر عن قيمة الأسطورة بقوله : «هل تفتقر الأساطير في صميمها إلى أية قيمة إيجابية أو مغزى ؟»[11].

والإجابة عن هذا السؤال نعثر عليها لدى "مرسيا إلياد" الذي توصل من خلال أبحاثه إلى أنه بالنسبة للإنسان البدائي كانت الأسطورة تعني

قصة حقيقية، بل قصة مقدسة ومثالية أيضا، لها دلالتها لأنها كانت تمثل الحاجات الدينية والحكم الأخلاقية والمتطلبات الاجتماعية إذ يقول : «تروي الأسطورة قصة مقدسة، وحدثا وقع في الزمان الأول، زمن البدايات العجيب، بعبارة أخرى تروي الأسطورة كيف خرج واقع معين إلى حيز الوجود بفضل أعمال باهرة قامت بها بعض الكائنات الخارقة للطبيعة، سواء كان ذلك الواقع كليا مثل الكون أو جانبا منه كأن يكون جزيرة أقام فيها الناس أو نوعا من النبات أو سلوكا إنسانيا أو مؤسسة اجتماعية. فهي تروي إذن عملية خلق دائما، ولا تتحدث إلا على ما وقع بالفعل»[12].

فالأسطورة بهذا المعنى تشير كما يقول "بشير زهدي" إلى بداية العلوم والفنون والأديان، وهذا ما عبر عنه بقوله : «لقد قدمت الأسطورة أقدم الأفكار والقصص والأحكام التي تدل على تطلعات الذكاء الإنساني وعطاءاته عبر العصور التاريخية وأولى محاولاته الفكرية في فهم الكون والكائنات والقوانين والمأثورات»[13].

من هذا المنظور فإن دراسة الأساطير تصبح ضرورية لمن يرغب في فهم بدء الأدب والتاريخ والدين، وهذا ما استنتجه وديع بشور بقوله : «إنه لمن السطحية الفكرية والسخف أن ننظر إلى الأسطورة على أنها مجرد خرافة تروى للتسلية، لأن الأسطورة هي أدب وتاريخ ودين، وهي تمثل البداية في هذه النشاطات الفكرية وتدوينها »[14].

تجمع الأسطورة إذن ما بين الأدب والدين والتاريخ، فهي كما قال "عبد الملك مرتاض" : «مزيج من كل شيء في كل شيء، فهي حكاية خالصة، وهي حكاية مستوحاة من حوادث التاريخ، وهي قصة سردية، وهي تاريخ آلهة، وهي تاريخ أبطال، وهي تاريخ أجداد، وهي سيرة حيوانات ...»[15].

هي الأدب، لأنها تدخل في مجال الأدب القصصي النثري والملحمي، وهذا ما حدا بالدارسين في محاولاتهم لتعريف الأسطورة إلى ربطها بالقصة، أو العمل السردي والحكاية الشعبية، والخرافية، فلقد عرفها "بيير سميث" (P. Smith) كما يقول عبد الملك مرتاض مثلا بأنها «ليست إلا نوعا خاصا من قصة نموذجها حددته تواريخ الآلهة في الميتولوجيا الإغريقية الموغلة في القدم، وعلى الرغم من أن كثيرا من الأساطير ليست تواريخ أديان، فهي على كل حال تواريخ أبطال، ولكنها تتميز بصفات الحكايات، أو الحكايات الشعبية المستوحاة من التاريخ، ثم هي تواريخ أجداد ولكنها تتميز بخصائص القصص التاريخية، وتاريخ الحيوانات المتميز بالصبغة الخرافية»[16].

هي الدين، لأنها تحكي قصة مقدسة أبطالها كائنات علوية عظيمة تستوجب التقدير والاحترام، «فالإنسان البدائي حينما تساءل عن مصدر الظواهر الكونية كالبرق والرعد والمطر والنبات لم يكن في نيته معرفة كيفية وجود الآلهة، وإنما ربط وجود هذه الأشياء بقوى غيبية تسيطر عليها، وقد دفعه هذا الاعتقاد إلى توطيد علاقته بالآلهة وإبرام صلح دائم معها حتى يكسب محبتها بواسطة العبادة والتضحية والتبجيل، وهذا ما دفعه إلى التفكير في إنشاء طقوس دينية يحييها في مناسبات معينة، فنشأت عن ذلك الأسطورة التي تصف هذه الطقوس أو تسرد ما يتصل بها»[17].

الأسطورة من منظور هذا الرأي ما هي إلا استجابة لنزعة دينية وتأملية فسر الإنسان بواسطتها مواقفه الدينية وتصوراته الفكرية، فهي بمثابة خلاصة لتجربة روحية ومعاناة فكرية شرح فيها الإنسان الأول ما اعترضه من حالات مختلفة في عالمه المخيف المليء بالأسرار.

وهي التاريخ، لأنها نبعت من جدل الإنسان والعالم المحيط به، فهي عند إنسان الأزمنة السحيقة مسألة بالغة الأهمية، تعلمه التواريخ الأولى التي تؤلف كيانه وجوديا، وتشكل نسيج حياته، ومن هذا المنطلق حاول بعض الباحثين في علم الأساطير توضيح علاقة التاريخ بالأسطورة من خلال القول بأن الأسطورة هي التاريخ الذي لا نصدقه، وأن التاريخ هو الأسطورة التي نصدقها[18]، ويختلط التاريخ والذاكرة الجمعية كثيرا في الفكر الأسطوري، حيث يتداخل الزمان ولا تطرح مشكلة صحة الأحداث أو صدقها[19]، وكما يقول "جيمس فريزر" : «فأهمية الأساطير مسألة معترف بها على أساس أنها وثائق عن التفكير الإنساني وهو لا يزال في حالة الجنين. ونحن لا نتقبلها لأنها تشبع في نفوسنا تسلية عابثة ولكن لأنها تلقي ضوءا ينير لنا طريق التطور الفكري الذي سار عليه جنسنا البشري. ولا يزال أمامنا الكثير من العمل لجمع الأساطير ومقارنتها قبل أن نتمكن من تصنيف كل أساطير العالم وتبويبها في مجموعة كاملة حيث نستطيع من خلال هذا المعرض لحفريات الفكر الإنساني أن نكشف النقاب عن مرحلة بدائية من مراحل مسيرة هذا الفكر منذ بداياته المتواضعة حتى مساراته العليا[20].

وبناء على هذا التصور فإن الأسطورة تروي أحداثا حقيقية وقعت بالفعل، فهي تاريخ الأجيال الغابرة للأجيال اللاحقة، فالآلهة كما روتها الأساطير ما هي في الأصل إلا جماعة من ملوك العالم الأقدمين ألههم الناس لما علموا ما بلغه هؤلاء الملوك من مكانة و سلطان، وهكذا «أصبح للأساطير واقع فيما قبل التاريخ، وأخذت الأساطير تمثل الذاكرة الإنسانية المشوشة أو التصوير الخيالي للملوك في عصور سحيقة غلبت عليها البداوة»[21].

أشار "أحمد علي مرسي" في دراسته لكتاب المأثورات الشفاهية لـ"يان فانسينا" إلى مجموعة من الدارسين الذين يؤمنون بوجود مضمون تاريخي

الذي وضح في إحدى دراساته التي صدرت في بداية هذا القرن أهمية الأساطير والحكايات الشعبية وغيرها بالنسبة للتاريخ وأنها يمكن أن تسد الفجوة بين التاريخ الرسمي، والتاريخ الاجتماعي للمجتمع[22]، فعلاقة الأسطورة بالتاريخ علاقة وثيقة، لأن كل أسطورة كما يؤكد ليفي ستراوس تروي تاريخا[23].

لقد اتجه النظر إلى الأسطورة على أنها ثرية بالحقيقة، مليئة بالمعنى، معبرة عن الإنسان وتأكد هذا مع الدراسات الحديثة التي تعمقت في البحث في المجتمعات البدائية، حيث انتهى معناها إلى أن ما كان يطلق عليه اسم "أسطورة"، وهي الأباطيل والأكاذيب تعني بالنسبة للبدائيين "قصة حقيقية".

إن هذا التطور الجديد في معنى هذه الكلمة، جعل استعمالها في اللغة المعاصرة مبهما، لأنها تدل على معنيين : الأول وهو القديم بمعنى الوهم -الخرافة- الأباطيل، والثاني وهو الجديد بمعنى الحقيقة أو الخطاب الجدّي أو المقدس.

يؤكد مؤلفو كتاب ما قبل الفلسفة، المعنى الثاني للأسطورة بقولهم : «يجب أن نأخذ الأسطورة بعين الجد لأنها تكشف عن حقيقة مهمة، وإن يتعذر إثباتها -حقيقة لنا أن ندعوها حقيقة ميتافيزيقية-. ولكن ليس للأسطورة وضوح النص النظري وعموميته. إنها مجسدة محسوسة، وإن تدع أن صدقها لا يمكن الطعن فيه، وهي تطالب المؤمن بالاعتراف بها، وإزاء المتشكك لا تحاول تبرير نفسها»[24].

وهكذا يقترن بالأسطورة معنيان اثنان، يتناقضان ظاهرا لأنهما يعبران عن وجهتي نظر اثنتين من زاويتين مختلفتين، وربما هذا ما حدا بمحمد عجينة إلى تحديد المعنى الذي يقصده من كلمة أسطورة في بحثه الموسوم :

"موسوعة أساطير العرب" بقوله : «ورغم أن كلمة أسطورة لدى المسلمين قد وردت كما سبق أن رأينا في سياق جدل ومحاكمات واستوت أو كادت بمعنى التخريف والباطل فإننا لا نستعملها بهذا المعنى المستهجن الذي ما تزال به محملة حتى الآن لدى بعضهم وإنما بمعنى آخر هو معناها النبيل - الخطاب المقدس- والحقيقة»[25].

وتماشيا مع هذا السياق فقد يوجد من الباحثين من ينظر إلى الأساطير بوصفها نمطا من القصص الخرافي الذي يكشف عن فقر في الفكر و قصور في الأهمية، مثلما ذهب إلى ذلك "شايف عكاشة"، فالأسطورة عنده : «لا تخرج على أن تكون قصة خيالية قوامها الخوارق والأعاجيب التي لا يقبلها المنطق»[26].

ويناقضهم على طول الخط أولئك العلماء[27] الذين يؤمنون بأن أساطير العالم القديم إنما تمثل واحدة من أعمق منجزات الروح الإنسانية خلقا وإبداعا.

ومن هنا يتضح بأن المعنى الاصطلاحي لكلمة "أسطورة" في الدراسات الحديثة لا يستقر على معنى واحد، فهو يدل لدى البعض على القصص والخيالات التي لا أساس لها من المنطق، في حين يدل لدى البعض الآخر على الحقيقة، الأمر الذي عقّد موضوع الأسطورة وجعله متشعبا، وصعب من الوقوف عند تعريف عام، جامع مانع -من شأنه أن يكون محل اتفاق جميع الباحثين والمتخصصين.

وسنكتفي فيما يلي بذكر هذا التعريف الذي نجده في معجم الفولكلور والذي يقول إن الأسطورة «تروي تاريخا مقدسا وتسرد حدثا وقع في عصور ممعنة في القدم، عصور خرافية تستوعب بداية الخليقة، أو بعبارة أخرى الأسطورة تحكي بوساطة أعمال كائنات خارقة كيف برزت إلى

الوجود حقيقة واقعة... قد تكون كل الحقيقة أو كل الواقع مثل الكون أو العالم وقد تكون جانبا من الحقيقة مثل جزيرة من الجزر أو فصيلة من النبات أو ضرب من السلوك الإنساني أو منظمة اجتماعية...»[28]، فالأسطورة بهذا المعنى قصة خرافية، عادة ما تكون من أصل شعبي، تصور كائنات تجسد، في شكل رمزي، قوى الطبيعة، أو بعضا من جوانب عبقرية البشر ومصيرهم.

وعلى الرغم من أن هذا التعريف يلم بكافة جوانب الكلمة ومعانيها لأنه يشير ضمنيا إلى ما تتخذه الأساطير من أهمية قصوى في الديانات البشرية والآداب الشعبية، إلاّ أنه يبقى واحدا من بين التعاريف العديدة التي ساهمت في توضيح بعض المسائل المتعلقة بطبيعتها وعلاقتها بغيرها من الأنساق التي قد تتداخل معها.

وعندما نتأمل باحترام، وندرس بمنهج فلكلوري، ما نسميه أساطير الإنسان البدائي، نجدها بمعظمها قد أماطت اللثام عن كيفية تفكير الإنسان البدائي وتفاعلاته مع الكون والحياة ومحاولاته الأولى لفهمها وحل رموزها فلقد كانت الأساطير وما زالت جوابا عن تساؤلات الإنسان الأزلية : لماذا ؟ و من أين ؟ و كيف ؟

فمنذ البدء كانت الأساطير مظهرا من مظاهر محاولات الإنسان لتنظيم تجاربه وخبراته و معلوماته، حيث عكست الوجود الغامض للإنسان البدائي ورغبته في تفسير قوى الكون والحياة والطبيعة، التي وقف أمامها عاجزا عن إدراكها، ولذلك تعددت أنواع الأساطير القديمة باعتبارها سجلا لمدارك الإنسان ومنظوماته الفكرية، فما هي الفلسفة التي اعتمدها الباحثون في تصنيفهم لهذه الأنواع ؟

ثالثا. تصنيف أنواع الأسطورة

تعد مسألة تصنيف أنواع الأساطير من المشاكل الأساسية التي تعترض دارس هذا اللون من أشكال التعبير الشعبي، فإذا تصفحنا المؤلفات الرئيسة التي اهتمت بدراسة الأسطورة على المستوى العالمي، فسنجدها لا تتفق على رؤية واحدة في تحديد أنواع الأساطير، وعلى العموم يمكن حصر بعض الجهود التي اهتمت بتصنيف أنواع الأساطير في الاتجاهات التالية :

- اتجاه تصنيف أنواع الأساطير اعتمادا على مقياس الموطن.
- اتجاه تصنيف أنواع الأساطير اعتمادا على مقياس الموضوع.
- اتجاه تصنيف أنواع الأساطير اعتمادا على مقياس التطور.

1. تصنيف أنواع الأساطير اعتمادا على مقياس الموطن

ليس من باب المجازفة القول بأن الأساطير هي كباقي الفنون الأخرى، لم تنشأ وسيلةً للمتعة، بقدر ما نشأت شكلاً متميزا للمعرفة الإنسانية، ومحاولة لاستيعاب العالم بشكل مجازي، بوصفه نظاما من المفاهيم الرمزية المجردة، وشكلاً من أشكال علاقات الإنسان مع العالم.

من أجل ذلك اعتبرها الدارسون بأنها من «أكثر أنواع الأدب الشعبي تنقلا وارتحالا بين الأجيال وبين الشعوب، وأكثرها توضيحا لحضارة الشعب ولعقليته، ووصفا لبيئته ومجتمعه وأحداثه، ولذلك كانت من أشد أنواع الأدب لفتا لأنظار علماء الاجتماع والتاريخ والأدب.

على أن منها ما هو محلي خاص أي إنه أصيل البيئة المحلية، ومنها ما هو أعمق تاريخا، أي إنه أصيل العرق وابن المجتمع الأول لشعب من الشعوب انتقل معه وارتحل، وأثناء الانتقال والارتحال دخلت عليه عوامل

الزيادة والنقص ليكون اقرب إلى البيئة الجديدة، ومنها ما هو أجنبي عن البيئة انتقل إليها من بيئة أخرى ومن شعب آخر بحكم الجيرة أو الاختلاط الاقتصادي أو السّياسي»[29].

من هذا المنظور و اعتمادا على مقياس الموطن يمكن تصنيف الأسطورة إلى نوعين هما : أولا : أساطير أصليـة

ثانيا : أساطير مهاجرة

أوّلا•الأساطير الأصليّة

يمكن تعريف الأسطورة الأصليـة بأنها تلك التي تكونت في مجتمع مـا، واستمرت فيه لتمثل الحصيلة الطبيعية لتفاعلاته الداخلية و تطلعاته في مرحلة لم يكن الإبداع الذهني فيها قد تجاوز المستوى الأسطوري[30].

وعلى بساطة هذا التعريف إلا أنه يطرح إشكالية الوقوف عند المجتمع الأول الذي أنتج الأسطورة.

فالتراث العربي على سبيل المثال، منذ عصوره الأولى، قد تأثر بميتولوجيا الحضارات والشعوب الأخرى كمصر القديمة والهند والفرس واليونان وتراث تلك الحضارات. ومن هنا فقد دخلت عناصر كثيرة من ميتولوجيا تلك الشعوب -وإن فقدت وظيفتها الأولى- في التراث العربي. وهذا يتطلب جهدا كبيرا، فلا يستطيع باحث بمفرده أن يتتبع الجذور، أو الأصول الأولى لتلك العناصر في مظانها إلا إذا ظل سنوات وسنوات في دراسة ميتولوجيا تلك الشعوب، بعد أن يقوم بجمع الكثير من أساطيرها وحكاياتها الخرافية، ويخضعها للبحث المقارن مع دراسة تاريخ تلك الشعوب، وحتى ولو قام بهذا الجهد فليس من الثابت أن يصل إلى حقيقة تلك الأصول، يوضح هذه الإشكالية "ستث تومبسون" بقوله : «ومن هذا المنظور (البحث في الأصول) لا يوجد فارق -على كل حال- بين الحكاية

الشعبية المعتادة والأسطورة فكلاهما ينتشر، وكلاهما يأخذ في التراكم، ويكونان موضوعا لتقلبات الذاكرة والنسيان، وقبل أي بحث عن الأصول لا بد للمرء أن يعرف كل الحقائق عن تاريخ العبارة التي يدرسها، وبالطبع لا يمكن معرفة كل الحقائق، لكن هناك ضرورة -من الناحية الدراسية- أن نعرف أكثر ما يمكن معرفته من هذه الحقائق، وإذا شرع دارس في دراسة الحكاية الشعبيّة، على سبيل المثال فإن عليه أن يضع نصب عينيه كل النسخ المعروفة حتى ولو بلغت الألف وحين يحلل هذه النسخ ويأخذ في اعتباره كل الحقائق التاريخية المرتبطة بها، يدرس جغرافيتها جيدا، ربما يمكنه أن يعرف شيئا عن المكان الأصلي بشكل عام، وعن الشكل الأولي الغامض للقصة التي يدرسها، وربما يكون قادرا على أن يفسر الكثير من التاريخ اللاحق للحكاية»[31].

هذا كل ما يستطيع الباحث أن يصل إليه في الأصول ، أما أن يصل إلى الأصل الحقيقي «فإنني في شك كبير من استطاعته أن يرجع بأثر كل أصل حكاية أو أسطورة إلى مكانها الأول المعروف، ولو أن الفرد كان بصدد دراسة الحكاية الشعبية، يستطيع بالطبع أن يتأمل في الطريقة التي جمعت فيها الوحدات الوظيفية لتكون حكاية معيّنة، وعلى الرغم من ذلك فقد حصرت نفسي مدة نصف عمري في دراسة تاريخ الوحدات الوظيفية الروائية، وأنا أشك في أي نجاح لتفسير ما قبل التاريخ لحكاية معينة أو أسطورة ... ربما عندما نعلم ما يكفي عن الأساطير المختلفة والحكايات، وندرسها بعناية وموضوعية عن طريق التحليلات المناسبة، نستطيع أن نقف على بعض النتائج العامة حول أصناف معينة منها، ولكن الأصل الأخير لكل الأساطير والحكايات يجب أن يبقى سرا غامضا مثلما أن أصل اللغة سر غامض»[32].

ولم يكن "ستيث توميسون" هو الوحيد الذي أشار إلى صعوبة البحث في الأصول فهناك غيره الكثير، منهم "فريديريك فون دير لاين" الذي أشار إلى ذلك في أثناء دراسته للحكاية الخرافية، وقد أرجع صعوبة الوصول إلى أصل الحكاية الخرافية إلى كونها «بنية مركبة حيث لا يمكن تفسيرها بطريقة موضحة، فهي تستمد تصوراتها من مراحل حضارية مختلفة أشد الاختلاف ومن مجالات حياة متميزة غاية التمييز، ثم هي تعيد تشكيلها، ومن ثم فإن السؤال عن أصل الحكاية الخرافية أو أصولها من الصعوبة بمكان الإجابة عنه، أو هي تستحيل على الإطلاق، فلن تجد إجابة واحدة تصدق بالنسبة لكل الحكايات الخرافية»[33].

وإن اتّسم البحث عن الأصول بالصّعوبة، إلا أن جهود الباحثين في هذا المجال استطاعت أن تتوصل إلى كشف النقاب عن بعض الأساطير الأصلية، ويتعلق الأمر على سبيل المثال بـ"أساطير الطوفان" في بلاد ما بين النهرين إذ «تعتبر أصلية على الرغم من التمايزات التي نلاحظها بين النصوص السومرية، وتلك التي تتناول الموضوع نفسه من النصوص الأكدية والبابلية والآشورية لاحقا، وتفسير ذلك يكمن في طبيعة بلاد ما بين النهرين، حيث الفيضانات المدمرة المفاجئة»[34].

والأمر نفسه يتكرر بالنسبة لبعض الأساطير ذات الشهرة العالمية كأسطورة "جلجامش" التي عثر عليها العلماء في أواخر القرن التاسع عشر في مكتبة قصر الملك آشور بانيبال في نينوى -عاصمة الدولة الآشورية التي كانت تقع على نهر دجلة فيما يقابل حاليا مدينة الموصل-[35] وأسطورة "الخلق اليونانية".[36] و أسطورة "أوزيريس" المصرية[37].

ثانيا: الأساطير المهاجرة

هي كما أشار إليها محمد المرزوقي في الرأي سالف الذكر، تلك الأساطير التي انتقلت من مجتمع إلى آخر تحت تأثير مجموعة من العوامل كعامل الجيرة والتبادل التجاري والسياسي على وجه الخصوص[38].

وما ينبغي التوقف عنده في هذا المجال هو أن مجرد التشابه بين مختلف أساطير الشعوب ليس معناه الجزم بوجود أساطير أصلية وأخرى مهاجرة، لأن فكرة التشابه كما وضحها بعض الباحثين المتخصصين تخضع لاعتبارات عدة ليس بالضرورة أن توحي جميعها بفكرة الأساطير الأصلية والمهاجرة، وهذا ما تناوله بشيء من الدقة والتفصيل الباحث المصري سليمان مظهر، حيث يقول: «الأساطير التي جاءت في أغلبها متشابهة متفقة تثير الحيرة والتساؤل من علة تشابه أساطير المصريين مثلا مع أساطير الهنود والفرس والصينيين والإغريق والأوروبيين أيضا، هذا التساؤل يجيب عنه بعض الدارسين بأن الجنس البشري كله نشأ أول ما نشأ في مكان واحد ثم تفرق وارتحلت معه معتقداته وأساطيره، ويذهب آخرون إلى أن حياة الإنسان لم تظهر في مكان واحد بل في أمكنة شتى، ولكن قام بين مختلف هذه الأوطان علاقات ثقافية هاجرت بواسطتها الأساطير وسواها من عناصر التراث القديم من أمّة إلى أمّة، وثمة رأي ثالث يقول إن سبب التشابه هو تشابه ظروف تطور التاريخ الإنساني عامة وانتقاله من حالات قامت من كل موطن إلى حالات أخرى حكمت هذا الوطن نفسه»[39].

وما يراه "عبد الباسط سيدا" بخصوص هذه الآراء الثلاثة التي حاولت اكتشاف علة تشابه أساطير الشعوب هو أن الرأي الأول يصعب تأكيده بالأدلة العلمية والتاريخية فإلى حد الآن لا توجد هناك معطيات تاريخية تثبت أن البشرية وجدت في بدايتها الأولى في مكان واحد، وهذا ما سبقت الإشارة إليه مع "ستث تومبسون" و"فون دير لاين".

أما الرأي الثاني، «فهو يستند إلى الوقائع التاريخيه التي تم التوصل إليها حتى الآن، كما أنه يلقي الضوء على الأساطير المهاجرة والأصلية، لأنه يؤكد أهمية تلك العلاقات التي ارتبطت بفعلها سائر المناطق التي شهدت ولادة المجتمعات الإنسانية الأولى بعضها مع بعض، إلا أن التحفظ الذي نسجله تجاه هذا الرأي يقوم أولا على أن تلك العلاقات لم تكن ثقافية بحتة بقدر ما كانت تجارية أو حربية، ويستند تحفظنا ثانيا إلى عدم قدرة هذا الرأي على تغطية اللوحة كلها، لأنه في حالات معينة قد نجد تشابها بين أساطير منطقتين أو أكثر، على الرغم من عدم وجود دلائل تؤكد قيام أي نوع من العلاقات فيما بينها، وهنا نرى أن الرأي الثالث يسد هذه الثغرة، فهو يبين في مثل هذا الوضع أن تشابه الظروف يؤدّي إلى تشابه الأساطير»[40].

قد نعثر عن الفكرة الأخيرة الواردة في الرأي السالف الذكر لدى عدد من الباحثين تحت مصطلح "الأفكار الأساسية" وهي الفكرة التي توصلت إليها نظرية الأخوين جريم فيما يسمى بـ: "أصل الحكايات الخرافية"، حيث ذهبت نظريتهما إلى أن : «التشابه بين الحكايات الخرافية رغم ما يفصل بعضها عن بعض من مسافات زمنية ليس أقل مما بين الشعوب المختلفة من أمور متشابهة رغم انفصالها، ويرجع بعض هذا التشابه إلى تماثل الأفكار الأساسية»[41].

وعلى هذا الأساس انبنت نظرية العالم الفرنسي "بيدييه"(Bedier) في القص الخرافي، التي خطا بها خطوة أبعد من الأخوين جريم وتعرف بنظرية تعدد أنواع الحكايات، وقد جاء بها في كتابه : عن الفابيولا (le Fabliaux)، والتي تتلخص في : «أنه كما ينمو نبات متماثل في جميع أنحاء العالم في الأحوال الجغرافية والجوية المتشابهة كذلك تظهر في الظروف الروحية المتماثلة صور متماثلة للنشاط الروحي»[42].

فالتشابه عنده لا ينبع من فكرة اشتراك الشعوب ذات الأصل الهندوجرماني في تراث قصصي واحد، انتشر منها إلى جميع أنحاء العالم، بل إن التشابه أساسه اشتراك شعوب العالم القديم في أفكار إنسانية وظروف فكرية واحدة.

والأمر نفسه قد نعثر عليه لدى الباحث الألماني "هانز نومن" (Hans Naumann) -الذي ذهب «إلى أن وجوه التجانس بين الشعوب لا تقوم كلها على الأخذ من بعضها البعض، وإنما المؤكد أنه من الممكن أيضا- وفقا للقوانين الطبيعية أن تنشأ من الأفكار الأساسية لدى الشعوب المنتمية إلى أجناس مختلفة ومناطق مختلفة يستقل بعضها تماما عن البعض الآخر -أن تنشأ صور متشابهة في المجالين الديني والروحي على السواء»[43].

وما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال هو تطابق هذه الآراء مع وحدة التصورات الدينية عند شعوب العالم التي توصلت إليها الدراسات الأنثربولوجية التي كانت تركز البحث حول الإنسان البدائي وإنسان الحضارات الأولى.

ومهما يكن من أمر فإن تصنيف الأساطير وفقا لمقياس الموطن لا ينبغي النظر إليه على أنه الوحيد لحل هذا الإشكال، وانسجاما مع هذا نرى أن اعتماد هذا المقياس يأتي في سياق التكامل مع الخطوات الأخرى التي تستهدف جميعها الإحاطة بالمسألة من جميع جوانبها.

2. تصنيف أنواع الأساطير اعتمادا على مقياس الموضوع

يعرف هذا التصنيف لدى نقاد الأدب بالتصنيف الموضوعاتي، يعرفه "سعيد علوش": «بحث عن النقاط الأساسية التي يتكون منها متن العمل الأدبي، ومقاربة الكشف عن هذه النقاط الحساسة، التي تجعلنا نلمس تحولاتها، وندرك روابطها في انتقالها من مستوى تجربة إلى أخرى شاسعة»[44].

وفق هذا المنظور تعتمد الدراسة التصنيفية الموضوعاتية البحث عن الأفكار الأساسية، التي تساهم في تشكيل الفضاء الدلالي لنص الأسطورة، وبالتالي يتم تصنيفها وفق محاور موضوعاتية.

وبما أن الأسطورة كما قال ص. هـ. هوك هي : «عنصر مهمّ في ثقافة الشعوب»[45]، فإن الموضوعات التي تدور حولها ترتبط ارتباطا وثيقا بالتكوين والأصول والموت والعالم الآخر ومعنى الحياة وسر الوجود وما إلى ذلك من مسائل التقطتها الفلسفة فيما بعد، وباختصار فالأسطورة تبحث في الحوادث الكبرى وتهتم بالكائنات أيا كان نوعها، فهي تبحث في كيفية تشكل الأرض والسماء والبحر كما تهتم بخلق الإنسان والحيوان والنبات والجماد... وفي كل مظاهر الطبيعة الأخرى إلى جانب مغامرات الآلهة وكل ما له علاقة بتنظيم الكون والمجتمع، إلخ.

إن هذا التنوع في اهتمامات الأسطورة هو الذي حدا ببعض الباحثين إلى محاولة تصنيف أنواعها اعتمادا على مقياس الموضوع، وفي هذا المجال سأذكر تصنيفين لاثنين من أبرز الباحثين الذين سعوا في هذا المجال وهما :

- أولا : تصنيف "صموئيل هنري هوك"
- ثانيا : تصنيف"ثوردكلد جاكبسون"

أوّلا.تصنيف "صموئيل هنري لوك"

على الرغم من أن الأساطير عالجت موضوعات كثيرة يصعب حصرها، إلا أن "صموئيل هنري هوك" ميز في كتابه منعطف المخيلة البشرية بين خمسة أنواع من الأساطير، يقول : «بدراسة المادة الأسطورية بالغة التنوع التي أعطاها الشرق الأدنى القديم، وباستخدام فكرة الوظيفة معياراً، يصبح ممكنا تمييز الأنماط التالية من الأسطورة وهي : أسطورة

الطقس وأسطورة الأصل أو الأسطورة السببية التكوينية وأسطورة العبادة وأسطورة الصيت وأسطورة البعث[46].

وفي شرحه لهذه الأنواع، يقول : فأسطورة الطقس هي التي «تتولى سرد القصة التي يجري تمثيلها، فتصف الموقف، لكن القصة لم تكن تروى للترويح عن المشاعر»[47]. ويعتبر "ص. هـ. هوك" هذا النوع من أقدم الأساطير مقارنة بالأنواع الأخرى.

أما أسطورة الأصل فهي التي تقوم على «تفسير خيالي لأصل عادة ما أو اسم أو مادة »[48].

هذا في حين أن أسطورة العبادة «تتمثل في تأكيد العلاقة بين الإله وجمهوره من البشر، بينما تحاول أسطورة الصيت إحاطة شخصيات خاصة أو مدن معينة بهالة من الغموض والقداسة»[49].

وأخيرا تتضمن أسطورة البعث فكرة إمكانية التخلص من الشرور انطلاقا من الفعل المقدس الذي يتعذر «وصفه بغير لغة الأسطورة»[50].

وما يؤخذ على هذا التصنيف من وجهة نظر "عبد الباسط سيدا"، «هو أنه يضع حدودا بين طائفتين من الأساطير يمكن وضعهما في إطار واحد فأسطورة العبادة هي امتداد طبيعي لأسطورة الطقس... من جهة أخرى تلتقي أسطورة الصيت مع أسطورة الأصل وتندمج معها... أما أسطورة البعث فهي تدخل في إطار أسطورة الطّقس، وذلك إذا ما وظفت طقسيا لتغدو جزءا من الطقس العام، الذي يمارس في مناسبات معينة، كما قد تعتبر وجها من أوجه أسطورة الأصل، إذا كان الغرض منها هو تبيان ملامح الفعل المقدس، وطريقة تفاعله مع موضوعه»[51].

إن النقد الذي وجهه "عبد الباسط سيدا" لهذا التصنيف والذي بموجبه يمكن تصنيف الأساطير إلى نوعين هما الأساطير الطقسية وأساطير الأصول، استدركه "صموئيل هـ. هوك"، في كتابه ديانة بابل وآشور بقوله : «عندما نأتي إلى درس الأساطير التي حفظتها لنا البقايا الكثيرة مما خلفه لنا الأدب الديني في بابل وآشور، نجد نوعين من الأساطير : نوع يمكن تسميته بالأساطير الطقسية، وآخر نسميه أساطير الأصول»[52].

وفي مناقشته لهذا التصنيف، الذي أراد من خلاله كشف الصعوبة التي يمكن أن تواجه الباحث إذا ما أراد البتّ في أيهما أسبق، توج حديثه بذكر هذا القول الذي هو لـ "ثوركلد جاكبسون"، والذي بموجبه تصنف الأساطير إلى ثلاثة أنواع، ويعرف هذا التصنيف في الدراسات الميثولوجية بتصنيف ثوركلد جاكبسون.

ثانيا- تصنيف "ثوردكلد جاكبسون"

يقول : «طرح الأدب الميثولوجي، وهو أدب غزير ومتنوع، في الألفية الثالثة أسئلة وأجاب عنها. ويمكن إجمال معظم هذه الأسئلة في ثلاثة :

أولها أساطير الأصول، وهي تسأل عن أصل كينونة أو جملة كينونات في نطاق العالم : آلهة، نباتات، بشر. وعادة ما يعطى الجواب في صيغة الولادة، وفي أحوال نادرة في صيغة الخلق والصنع.

وثانيهما وتتألف من أساطير التنظيم، وهي تسأل : كيف حدث هذا النوع أو ذاك من المعالم ؟ أو كيف ظهرت بعض الأقاليم في نطاق العالم الراهن ؟ : كيف حصل هذا الإله أو ذاك على وظيفته ومهامه ؟ كيف أصبحت الزراعة منظمة ؟ كيف ظهرت إلى حيز الوجود فئات غريبة من الكائنات البشرية وحدّد لها وضعها ؟ فتجيب هذه الأساطير : بمشيئة إلهية .

وأخيرا أساطير القيمة، وتشكل مجموعة متفرعة عن أساطير التنظيم، تسأل هذه الأساطير بأي حق يحتل هذا الشيء أو ذاك موقعه من العالم، مثل هذه الأساطير تقارن بين الفلاح والراعي، أو بين الحبوب والصوف. وتبحث في المزايا النسبية التي يتميز بها الذهب بالغ الكلفة من النحاس زهيد التكاليف على منافعه الجمة، إلخ والقيم التي ينطوي عليها النظام القائم أكدتها المشيئة الإلهية وهي ترجع إليها»[53].

يعتبر تصنيف جاكبسون من المحاولات الجادة التي بذلت في مجال تصنيف أنواع الأساطير اعتمادا على مقياس الموضوع، فقد وزع الأساطير بين مجموعات ثلاث : أولها أساطير الأصول، وثانيهما أساطير التنظيم، وأخيرا أساطير القيمة. ووفق هذا التصنيف يمكن تحديد أنواع الأساطير.

واعتمادا على هذا الطرح وتماشيا مع تصنيف الأسطورة وفق المنظور الموضوعاتي، توصل الباحث العربي وديع بشور إلى التصنيف التالي [54]:

1• أساطير عن الخلق و أصول الأشياء : و"هي التي تتساءل عن أصل بعض الكائنات أو الفئات من الكائنات في الكون : من آلهة أو نباتات أو بشر. والجواب المعطى عادة هو الميلاد أو يكون في أحيان نادرة الخلق أو الصنع"[55].

من الأمثلة التي ذكرها على أساطير الخلق، قصة التكوين البابلية التي هي في نظره أهم أساطير الخلق وتعرف لدى الدارسين بـ"أسطورة إينوما إيليش أو ملحمة الخليقة البابلية".

2• أساطير عن الآلهة والكائنات السماوية : "وتتعلق بأسمائها ومرتباتها ومهماتها في الكون ... منها الأساطير العاطفية كأسطورة تموز وأدونيس وكيف يقتل الإله ويندبه الناس ويولولون راجين عودته فيبعث حيا ويعود

الخصب وبدء الحياة بعودته. وبرون عشتار إلى الجحيم وزوال الحب والتوالد في غيابها وألمها من أجل البشر الهالكين في الطوفان»[56].

3• أساطير عن تعديلات جرت في العالم بعد التكوين : و«تختص بها الآلهة الثانوية التي لم تخلق الكون بل نظمته وساعدت على إبقاء الأمن والخصب فيه، والقيام بمهمات كالعواصف والأمطار وتفتق البراعم ومحاكمة الأموات إلخ...»[57].

4• أساطير عن الأجرام السماوية : ومنها «أساطير الشّمس والقمر والزهرة (شمس وسين وعشتار) في عدة حضارات، سومرية وأكادية وآرامية وكنعانية وكذلك إغريقية وهندو-أوروبية»[58].

5• أساطير تدور حول الأبطال : وهي كثيرة وتدور حول أناس صالحين مثل بطل الطوفان البابلي، أو ملوك نصف أسطوريين مثل جلجامش ملك أوروك السومري في مغامراته ضد الشر والموت بحثا عن عشبة الحياة... "[59].

أما محمد المرزوقي فقد صنفها ضمن المحاور الكبرى التالية[60] :

1- المحور الموضوعاتي الاجتماعي : وقد حصر أساطيره في علاقة الفرد بالفرد أو علاقة الفرد بالحاكم أو المجتمع.

2- المحور الموضوعاتي السياسي : وتدور أساطيره حول استنكار الظلم والتعدي، وتنشد الأمل والاستقرار والعدل والحرية.

3- المحور الموضوعاتي البطولي : وتقتصر على الأحداث الحربية وتتوافر على نصيب وافر من الخيال أو الوهم للمبالغة في وصف البطل.

4- المحور الموضوعاتي العقائدي : وهو المحور الذي تندرج ضمنه ما يسمى بالميتولوجيا الشعبية، وهو النوع الذي يقص أحداث الآلهة وكرامات الصالحين وخوارق الطبيعة وأقاصيص الغيلان والسحرة.

5- المحور الموضوعاتي التاريخي : ويضم الأساطير التي تعتمد على سرد الوقائع التاريخية الممزوجة بالخيال للمبالغة.

6- المحور الموضوعاتي الأدبي : وينضوي تحته الأساطير التي تعتمد الملح الأدبية كالأشعار والأمثال السائرة والألغاز التي تتطلب ذكاء لحلها.

7- المحور الموضوعاتي الحيواني :وتتجه أساطيره إلى الأطفال بهدف التربية.

وعلى الرغم من تقييم بعض الباحثين في مجال الأساطير التصنيف الموضوعاتي بكونه «يعتبر أساسا صالحا للتمييز بين معظم النصوص الأسطورية، الأمر الذي يسهل عملية دراستها ويساعد على استيعاب مضامينها»[61] إلا أن البعض الآخر أجمع على أن التصنيف حسب الموضوع كثيرا ما يجرنا إلى الوقوع في أخطاء كثيرة و يجعلنا نتيه دون الوصول إلى الغرض المنشود. ف : "كلود ليفي ستراوس" استبعد هذا الطرح عندما اعتبر أن التصنيف اعتمادا على مقياس الموضوع يؤدي إلى الخلط بين الأشكال، حيث قال إن ما يعده البعض موضوعا للحكاية الأسطورية، يعتبره البعض الآخر موضوعا للحكاية البطولية[62].

والأمر نفسه بالنسبة لعالم الحكاية الخرافية "فريديريش فون دير لاين" الذي أكد على حقيقة مفادها أن التفرقة «يجب أن تقوم على أسس أخرى»[63]، وهذا ما سنحاول التعرف عليه من خلال التصنيف الذي يعتمد على معيار التطور.

3. تصنيف أنواع الأساطير "اعتمادا على مقياس التطور"

وإذا بحثنا عن مقاييس أخرى لتصنيف الأساطير فسنجد عدة محاولات، منها : أولا : محاولة نبيلة إبراهيـــم

ثانيا : محاولة أحمد كمال زكي

وهي محاولة جادة في كونها مزجت في تصنيفها بين الموضوع من جهة وتطور الفكر البشري من جهة أخرى، فبالنسبة لهذه الباحثة فإن الأساطير التي اهتمت بالأجواء السماوية والظواهر الكونية كانت أسبق من الأساطير التي اهتمت بالعالم الأرضي وعالم الإنسان. ولذا فإن تصنيفها لأنواع الأساطير وإن أخضعته لمقاس الموضوع إلا أنها راعت فيه مسألة التطور، ومن هنا يمكن نعت هذا التصنيف بالتصنيف الذي يعتمد على مقياس التطور.

فبعد أن عرفت الأسطورة بأنها محاولة لفهم الكون بظواهره المتعددة، أو هي تفسير له، ذهبت إلى القول بأنها : «نتاج وليد الخيال، ولكنها لا تخلو من منطق معين ومن فلسفة أولية تطور عنها العلم والفلسفة فيما بعد»[64].

أما تصنيف الأسطورة من منظور هذه الباحثة فهو كالآتي[65] :

- الأسطورة الطقوسية : وهي مرتبطة أساسا بمظاهر العبادات والمثال الذي استشهدت به على هذا النوع من الأساطير هو أسطورة "أوزوريس"[66]. وهي أشهر أساطير مصر القديمة، «فإنها وإن أصبحت الآن تروى في إطار قصصي إلا أنها كانت في وقت من الأوقات عقيدة راسخة لها شعائر وطقوس ترتبط بالحياة والموت وما بعد الموت ارتباطها بالغرس والحصاد وهي تفسر كثيرا من الظواهر الكونية والطبيعية والإنسانية[67]».
- أسطورة التكوين : ومهمتها تصوير كيفية خلق الكون ولتوضيح ذلك تعرض علينا أسطورة زواج الأرض من السماء وإنجابهما للشمس والقمر والنجوم.
- الأسطورة التعليلية : وهي وليدة التأمل الموضوعي في ظاهرة غريبة وتحتاج إلى تعليل وقد «عرفت بعد أن ظهرت فكرة وجود كائنات روحية خفية في مقابل ما هو كائن من الظواهر الطبيعية كالرعد وانفجار البركان وانشقاق الأرض عن الزرع»[68].

- الأسطورة الرمزية : وهي أساطير تتضمن رموزا تتطلب التفسير، وهي تعبر عن :«مرحلة أكثر تعقيدا من المراحل التي قطعتها أساطير الطقوس والتعليل، أو لعلها أكثر قربا من الأسطورة التعليلية بوجه عام لأنها تعبر بطريقة مجازية عن فكرة دينية أو كونيـة»[69].
- أسطورة البطل الإله :وهي الأساطير التي يكون فيها البطل مزيجا من الإنسان والحيوان كأسطورة جلجامش المعروفة عموما بـ"ملحمة جلجامش"[70].

ثانيا : محاولة "أحمد كمال زكي"

وهي محاولة مماثلة لتقسيم نبيلة إبراهيم ولا تختلف عنها إلا من حيث الاصطلاح على بعض الأنواع، فالبنسبة لهذا الباحث فإن الأسطورة تنقسم إلى أنواع هي كالتالي[71]:

وفي شرحه لهذه الأنواع، يقول ما يلي :

- الأسطورة الطقوسية : ترتبط بعمليات العبادة، وعنيت برصد الجزء الكلامي من الطقوس، قبل أن تصبح "حكاية" لهذه الطقوس، ويمتاز ذلك الجزء بقوى سحرية خفية حتى يتمكن منشده من أن يسترجع الموقف الذي يصفه[72].
- الأسطورة التعليلية : فقد عرفت بعد أن ظهرت فكرة وجود كائنات روحية خفية في مقابل ما هو كائن من الظواهر الطبيعية كالرعد وانفجار البركان و اشتقاق الأرض عن الزرع[73].
- الأسطورة الرمزية : فهي مرحلة أكثر تعقيدا من المراحل التي قطعتها أساطير الطقوس والتعليل، أو لعلها أكثر قربا من الأسطورة التعليلية بوجه عام، فإنها تعبر بطريقة مجازية عن فكرة دينية أو كونية[74].
- التاريخسطورة أو أسطورة الأخبار : فهي تاريخ وخرافة معا، أو تتضمن عناصر تاريخية ومجموعة خوارق تأخذ إطار الحكاية وتنقل بالتواتر

من جيل إلى جيل كحكاية داحس والغبراء، وسـد مأرب، وحرب طروادة، وملحمة جلجامش[75].

وبتأملنا لهذا التصنيف الذي يعتمد على مقياس التطور، نلاحظ أنه حاول أن يعكس أهم المراحل التي تدرّج من خلالها التفكير الإنساني، فمن التأمل في المظاهر الكونية والأجواء السماوية إلى التأمل في البحث عما يشغل بال الإنسان في عالمه الأرضي.

وفي ضوء هذا التصنيف، اعتنى إبراهيم عبد الرحمن بتصنيف الأسطورة العربية القديمة، فقد ميز في أساطير الجاهليين بين أربعة أشكال، يدل كل شكل منها على طور حضاري بعينه أو يعكس مرحلة حضارية بعينها[76]:

- الأول : يتمثل في الأساطير التي ارتبطت بطقوس العبادة في ديانات الجاهليين وتقف هذه الأساطير عند حد تسجيل هذه الطقوس القولية التي كانت تصاحب الطقوس الدينية العملية.
- الثاني : الأسطورة التعليلية التي تحاول تفسير الظواهر الغامضة.
- الثالث : الأساطير الرمزية وأكثرها يرد في شكل حكايات منتزعة من عالم الحيوان غايتها تفسير الأمثال العربية المختلفة وتلعب الحية بصفة خاصة دورا بارزا في هذه الأساطير.
- الرّابع : الأسطورة التاريخية، التي تتمثل في الحكايات المأثورة عن حروب الجاهليين القومية والقبلية وغيرها من أيام العرب.

وفي ختام هذه المحاولات التي اهتمت بتعريف الأسطورة وبتصنيفها لا نخطئ إذا قلنا بأن المهتمين بالأسطورة ودارسيها لم يتوصلوا إلى اعتماد تعريف جامع مانع لها يمكنه الإسهام في توضيح بعض المسائل المتعلقة

بطبيعتها وعلاقتها بغيرها من الأنساق المتداخلة معها، ولعل صعوبة الوصول إلى هذا المبتغى هو الذي جعل سنت أوغسطين يقول عندما سئل عن ماهية الأسطورة «إنني أعرف جيدا ما هي، بشرط ألا يسألني أحد عنها، ولكن إذا ما سئلت، وأردت الجواب، فسوف يعتريني التلكؤ» ...

الإحالات

1- ابن منظور : لسان العرب - المجلد الرابع - دار صادر للطباعة والنشر - بيروت - مادة : سطر - ص 363.

2- المرجع نفسه : ص 364.

3- المرجع نفسه : ص 364.

4- المرجع نفسه : ص 364 .

5- خليل أحمد خليل : الأسطورة والسينما - مجلة الفكر العربي - العدد : 73- السنة الرابعة عشرة ص 5، 6.

6- الأب رفائيل نخلة اليسوعي : غرائب اللغة العربية - دار المشرق - بيروت، ط 4، ص 232 .

7- وديع بشور : الميتولوجيا السورية، أساطير آرام، دار الفكر بيروت ط 2، 1981، ص 9 .

8- ابن منظور : لسان العرب، ص 363.

9- د. محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب ج ، 1 دار الفرابي، بيروت، ط1 - 1994 - ص17.

10- د. عبد الملك مرتاض : الميتولوجيا عند العرب - دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1989 - ص 15.

11- إرنست كاسيرر : الدولة و الأسطورة - ترجمة : د. أحمد حمدي محمود - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 1975 - ص 1.

12- مرسيا إلياد : ملامح من الأسطورة - تر : حسيب كاسوحة - منشورات وزارة الثقافة - دمشق 1995 ص 11.

13- بشير زهدي : مقدمة في الميتولوجيا - مجلة المعرفة - العدد 197 - عدد خاص : الأسطورة والفكرالأسطوري - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - سوريا - 1978، ص19.

14- وديع بشور : الميتولوجيا السورية، ص 13.

15- د. عبد الملك مرتاض : الميتولوجيا عند العرب : ص 13.

16- المرجع نفسه، ص13.

17- د. عبد الحميد يونس : الحكاية الشعبية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1985 - ص 18.

18- توماس بلفنش : عصر الأساطير، ترجمة رشدي السيسي، النهضة العربية، القاهرة، 1966، ص 11.

19- جي روتشر : الأسس المثالية والرمزية للفعل الاجتماعي، تعريب د. مصطفى وندشل، مجلة الباحث اللبنانية، حزيران 1983، ص 95.

20- جيمس فريزر : أساطير في أصل النار، ترجمة يوسف شلب الشام، منشورات دار علاء الدين، دمشق 1999 ص 6.

21- د. عبد الحميد يونس : الحكاية الشعبية، ص 17.

22- يان فانسينا : المأثورات الشفاهية، ترجمة وتقديم : د. أحمد علي مرسي دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1981، ص 35.

23- كلود ليفي ستراوس : مقالات في الإناسة، اختارها ونقلها إلى العربية د. حسن قبيسي، دار التنوير، بيروت، 1983، ص 47.

24- مجموعة من المؤلفين : ما قبل الفلسفة - الإنسان في مغامرته الأولى - ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط2، 1980، ص 18.

25- محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب - ص20، 21.

26- د. شايف عكاشة : مقدمة في نظرية الأدب - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر -1990ج-1 ق 2 - ص 94.

27- انظر إرنست كاسيرر : الدولة والأسطورة - ص 18 وما بعدها.

28- د. عبد الحميد يونس : معجم الفولكلور مع مسرد عربي انجليزي، مكتبة لبنان، ط 1 1983، ص 34.

29- د. محمد المرزوقي : الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر، 1957، ص 17.

30- د. عبد الباسط سيدا : من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري - بلاد الرافدين تحديدا دار الحصاد للنشر والتوزيع - دمشق - ط1، 1995 ص 72 .

31- Stith Thompson : Myth and Folktales, Journal of American Folklore, Vol, 68, New York, 1955, p. 486.

32- المرجع نفسه، ص 486.

33- فريديريك فون دير لاين : الحكاية الخرافية، نشأتها، مناهج دراستها، فنيتها ترجمة نبيلة إبراهيم، دار القلم، بيروت 1973، لبنان ص 72.

34- د. عبد الباسط سيدا : المرجع السابق، ص 72.

35- انظر هذه الأسطورة مع دراستها في كتاب أشكال التعبير الشعبي للدكتورة نبيلة إبراهيم، من ص 24 إلى ص 54.

36- انظر هذه الأسطورة في كتاب : دراسات في الأساطير والمعتقدات الغيبية - تأليف : صالح بن حمادي - دار سلامة للطباعة - ط 1 - تونس 1983 - ص 121 - و إريك فروم : اللغة المنسية - ص 184.

37- انظر هذه الأسطورة مع دراستها في كتاب الحكاية الشعبية لعبد الحميد يونس دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة 1968 ص 22 وما بعدها.

38- د. محمد المرزوقي : الأدب الشعبي، ص 17.

39- سليمان مظهر : أساطير من الشرق، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، د ت - ص 10 .

40- د. عبد الباسط سيدا : المرجع السابق، ص 73 ، 74.

41- انظر فريديريش فون دير لاين : الحكاية الخرافية، المرجع السابق ، ص 31.

42- المرجع نفسه، ص 39.

43- المرجع نفسه، ص 39.

44- سعيد علوش : النقد الموضوعاتي، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، 1989، ص 13.

45- ص. هـ. هوك : ديانة بابل و آشور، ترجمة نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق، ط1 ص 105.

46- صموئيل هنري هوك : منعطف المخيلة البشرية - ص 10.

47- المرجع نفسه، ص 10.

48- المرجع نفسه، ص 11.

49- المرجع نفسه، ص 12.

50- المرجع نفسه، ص 13.

51- د. عبد الباسط سيدا : المرجع السابق، ص 76 .

52- ص. هـ. هوك : ديانة بابل و آشور، ص 105.

53- د. عبد الباسط : من الوعي الأسطوري، المرجع السابق، ص : 221.

54- فراس السواح : الأسطورة والمعنى، المرجع السابق، ص : 37.

55- جماعة من المؤلفين : ما قبل الفلسفة، المرجع السابق، ص 199.

56- وديع بشور : الميتولوجية السورية، ص 12.

57- المرجع نفسه، ص 12.

58- المرجع نفسه، ص 12.

59- المرجع نفسه، ص 12.

60- انظر محمد المرزوقي : الأدب الشعبي، ص 6، 7.

61- د. عبد الباسط سيدا : من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري، ص 76 ، 77.

62- Claude Levis - Strauss : Anthropologie Structurale, librairie Plon, Paris 1973.

63- فريديريش فون دير لاين : المرجع السابق، ص 136 وما بعدها.

64- نبيلة إبراهيم : أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 9.

65- المرجع نفسه من ص 16 إلى ص 48.

66- انظر هذه الأسطورة في كتاب قصة الديانات للمؤلف سليمان مظهر - مرجع سبق ذكره - ص -33 34.

67- د. عبد الحميد يونس : الحكاية الشعبية/ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة 1968 ص 22.

68- د. أحمد كمال زكي : الأساطير - دراسة حضارية مقارنة - ص 47.

69- المرجع نفسه، ص 49.

70- اهتمت بهذه الملحمة بالإضافة إلى دراسة د. نبيلة إبراهيم، العديد من الدراسات، أذكر منها : هندسة المعنى في السرد الأسطوري القصصي، جلجامش للدكتور قاسم المقداد، دار السؤال للطباعة والنشر بدمشق.

71- د. أحمدكمال زكي : الأساطير، دراسة حضارية مقارنة، ص 44.

72- المرجع نفسه، ص 46.

73- د. أحمد كمال زكي : المرجع السابق، ص 47.

74- المرجع نفسه، ص 49.

75- المرجع نفسه، ص 51.

76- انظر د. إبراهيم عبد الرحمن : الشعر الجاهلي - قضاياه الفنية والموضوعية - مكتبة الشباب، القاهرة، 1979، من ص 7 إلى ص 54.